



أيام رئاسة السيد محمد خاتمي لإيران روى لي أحد مساعديه البارزين تعليقاً ساخراً متداولاً في الأوساط السياسية في طهران يقول أن الإيرانيين طردوا من السلطة عام 1979 العائلة الشاهنشاهية الوحيدة من أصل فارسي. التعليق هو أكثر بكثير من مجرد "نكتة". إنه يعبر عن حقيقة مثيرة في التاريخ الإيراني بل عن تهكم التاريخ الإيراني على نفسه...

فعلاً ومنذ الفتح الإسلامي وبصورة خاصة منذ "القرون الوسطى" الميلادية حكمت إيران سلالاتٌ غير فارسية. وبعد الحكم السلجوقي والملوكي لمعظم العالم المسلم بما فيه الهيبة الإيرانية تولى الصفويون، وهم أتراك، حُكم إيران منذ القرن السادس عشر الميلادي وتلهموا القاجاريين الأتراك من أواخر القرن الثامن عشر إلى عام 1925 عندما استولى رضا بهلوي الضابط الفارسي في الجيش الإيراني على السلطة وأعلن نفسه أميراً طوراً ليخلفه لاحقاً ابنه محمد رضا بهلوي الذي ستطيع به الثورة الإسلامية عام 1979.

إذن فعلاً أطاح الإيرانيون بالسلالة الفارسية الوحيدة التي حكمت بلاد فارس خلال قرون، منها أربعة بشكل متواصل بعد تشييع الصفويين لإيران على المذهب الإثني عشري كانت السلالات الحاكمة خلالها سلالتين تركيتين. جاءت الثورة بزعيمها الإمام الخميني الفارسي (هذا إذا وضعنا جانبها رمزية كونه يرتدي العمامة السوداء أي أنه من أصل هاشمي عربي).

حكم الخميني لإيران عبر النظام الجديد الذي أسسه عشر سنوات وبضعة أشهر. اختير بعده السيد علي خامنئي التركي القومي ورئيس الجمهورية مرشداً جديداً للثورة والدولة. منذ سنوات طويلة لا جدال أن خامنئي هو الرجل الأقوى في إيران بل الحاكم القوي الذي يبدأ وينتهي عنده حسم التوازنات والسياسات العليا للجمهورية الإسلامية.

مضت عليه في أعلى الحكم الآن أربعة وعشرون عاماً وبضعة أشهر أي ضعف ونصف ضعف ما حكمه الإمام الخميني

وهكذا يكون التاريخ الإيراني الغني والمعقد قد عاد مع "ملك إيران" الحاكم منذ العام 1989 إلى مفارقته التقليدية في القرون السابقة: الحاكم المهاب على بلاد الفرس هو غير فارسي، بل "كالعادة" تركي!

مجلة "فورين أفيرز" في عدتها الأخيرة (أيلول، تشرين أول) وضعت صورة المرشد علي خامنئي على غلافها مع سؤال : "من هو خامنئي؟" أجاب عليه الكاتب ببحثٍ جارٍ في تاريخه الشخصي تظهره الرجل الذي كان على اتصال بكل مكونات النخبة الإيرانية وتنوعاتها قبل الثورة وبموقفه أو مواقفه الحذرة من "الديمقراطية الليبرالية" وباعتقاده العميق بتراجع الغرب. ولكن الكاتب (أكبر غانجي) يسجل ما يعتبره تطورا في خطاب خامنئي حيال الولايات المتحدة الأمريكية من "آخر متواش مطلق" إلى فهُم له أكثر تعددية وتنوعا.

"تراجع الغرب" يمكن أن يكون أيضا مبرراً أيديولوجيا، لدى حاكمٍ أو نظامٍ داهية، لعقد أكبر أنواع التسويات مع "الغرب" مثلما كانت نظرية "الامبرالية المأزومة" الماركسية مبرراً داخلياً لما وتسى توونغ ليس فقط لفتح علاقة مختلفة مع "زعيمة الامبرالية" الولايات المتحدة الأمريكية في أوائل السبعينيات من القرن المنصرم.

بل أيضاً. حسب كتاب هنري كيسنجر المهم جداً "عن الصين" - مبرراً لتحالف صيني أميركي ضد الاتحاد السوفيافي. فكيسنجر الحاضر إلى جانب الرئيس ريتشارد نيكسن في المباحثات مع الزعيم الصيني يقول أن كلام ما وتسى توونغ المباشر للرئيس الأميركي ووزير خارجيته لا يترك مجالاً للشك في أن هذه العلاقة من وجهة نظر ما وتسى توونغ كانت مشروع تحالف صريح ضد الاتحاد السوفيافي.

مسار الأحداث عاد وقوى منطق الذين دعموا الاتفاق الأميركي الصيني في بكين وواشنطن لأن الصين تطورت بعد ذلك وبعد ما - في اتجاه تقدم صناعي وتقنيولوجي لا زال يثير إعجاب العالم فيما ساهم الاتفاق في إضعاف خصم أميركا الأساسي الاتحاد السوفيافي ولاحقاً سقوطه.

لسنا في مجال المشابهة بين تلك اللحظة التاريخية الصينية الأمريكية واللحظة الأمريكية الإيرانية الحالية لأسباب عديدة على رأسها أن الصين ذات حجم أضخم وأقوى مختلفاً وإيران ذات موقع جيواستراتيجي عناصر ضعفه وقوته معددة. إذن المقارنة أفضل من المشابهة. لكن على مستوى الثقافة السياسية كلاهما كان لديها شعور بالتجربة التاريخية المهيأة - نعم المهيأة - مع الغرب، الصين في القرن التاسع عشر وقسم من أوائل العشرين وإيران في مطلع العشرين حتى تجربة مصدق في منتصف القرن.

من المبكر معرفة إذا كان "ملك إيران" الحالي علي خامنئي وفريقه يعتبران أنهم في لحظة إنضاج تسوية تاريخية مع واشنطن. فمن الصعب - حتى في طهران - الجزم بذلك بسبب صعوبة الأوضاع في الشرق الأوسط. لكن أحد معالم مسار "التفاوض" الإيراني - الأميركي هو أنه يتقدم في ظلٍّ تبلور تحالف حقيقي روسي - إيراني يقاتل الآن في سوريا ويبدو - كما كتبنا سابقاً - تحالفاً روسيًا مع "الإسلام الشيعي" (غير الموجود تقريراً داخل الديموغرافيا الروسية) ضد "إسلام سني" لدى الولايات المتحدة ومن ورائها بريطانياً خبرةً طويلة في التحالف معه قبل وخلال ظهور "القاعدة" كقوة معادية للغرب؟

يبين الملامح الأكثر جدية على خطورة واستراتيجية المفاوضات الإيرانية الأمريكية - حتى وهي لا تزال في مرحلة الاستكشاف - ملحوظ الغضب السعودي غير المألف وغير المسبوق حيال الإدارة الأمريكية الحالية. صدق. ولماذا لا تصدق؟ ألم يكن الأميركيون هم الذين قادوا ثم نفذوا سياسة عراقية أفضت إلى إتاحة المجال للدينامية الحزبية - الأكثروية الشيعية أن تمسك السلطة في العراق العربي بقيادة حلفاء موثوقين من إيران بما يحول بغداد إلى "دربة التاج الإيراني" المعاصرة وعبر ذلك يبدأ تهديد لا سابق له للمملكة العربية السعودية من وجهة النظر السعودية غير سياساتها

لكن الإنصاف يتطلب القول أن "الغرب" ذو ثقافة ديموقراطية أيضاً حتى وهو في ذروة خبته في العالم الثالث. فما فعلته أميركا في العراق حاولت أن تفعله في سوريا وهو خلق فرصة لكي تتولى قوى من الأكثريّة الديموغرافية السنّية السلطة في دمشق لكنها فشلت حتى الآن؛ ولو أنها نجحت في وضع المحور الإيراني في وضعية دفاعية... تأتي به حالياً مع العقوبات الاقتصاديّة إلى طاولة مفاوضات بدأنا نشم رائحة أنها غاية في الأهميّة والخطورة؟

فماذا سيفعل "ملك إيران" الذي تكرّس في عهده النفوذ الإيراني في المنطقة محوّلاً الزخم الأيديولوجي الذي قاده الخميني المؤسّس إلى زخم أمني جيوسياسي؟

لابل كان الضعف الأيديولوجي لاحقاً هو ثمن تصاعد القوة الأمنية السياسيّة.

فالمعنى الإسلامي الهائل الذي بدأته الثورة الإيرانية ووضع حتى "الإخوان المسلمين" تحت رايته هو الآن شبه منتهٍ ما عدا في مستوى الأمني السياسي كما العلاقة العائدّة مع "حماس"، والجانب المذهلي الشيعي أصبح في الدفاع أمام النجاح السعودي في تحريك الحساسية السنّية.

هذه بعض علامات القوة والضعف وفي هذه اللحظة بدأت أميركا الحوار.

\*\*\*

من الروايات الساخرة التي شاعت في طهران عندما أصبح الشيخ هاشمي رفسنجاني رئيساً نافذاً للبرلمان الإيراني أن والدة الشيخ هاشمي سُئلت مرة في رفسنجان قبل الثورة أين هو هاشمي؟ فأجابت: ذهب يصبح ملكاً في طهران. الذي فعلها هو علي خامنئي.

النهار

المصادر: